

زرياب *

بقلم محمد قدرى لطفى

ليسانيه في الآداب

تميل الى الفن ، وروح يهفو الى الطرب ، تتلمذ لاسحق بن ابراهيم الموصلى بيغداد يدرس عليه أصول الصناعة ويتعلم منه دقائق الفن ، وكان اسحق يعلمه الأغاني ويلقنه الألحان ، حتى اذا خلا زرياب بنفسه خلق من فن اسحق فناً جديداً ، وهداه صفاء نفسه وسمو روحه الى كل معجب مطرب ، واسحق لا يعلم من أمر تلميذه شيئاً ولا يدري أنه أخذ منه فتفوق عليه .

وذهب اسحق الى مجلس الرشيد يبعث فيه السحر كمادته وينطق فيه العود بالغناء الشجى والنغم العذب ، والخليفة مصغ اليه معجب به ، تأخذه حلاوة التوقيع وتروقه عذوبة الألحان ، حتى اذا فرغ اسحق من غنائه التفت اليه الرشيد يثنى عليه ويمدحه ويحادثه في صناعة الغناء ، فما هو الا أن يتشعب بهما الحديث حتى يقترح عليه الرشيد أن يسمعه مغنياً غريباً يجيد فنه ويحسن صنعته ممن لم يشتهروا عنده ولم تبلغ مكانتهم اليه ، فيذكر له اسحق تلميذاً له قد علمه وأعجب به يتوسم فيه الاجادة وعلو الكسب في صناعة الغناء .

مثل زرياب أمام الخليفة فسأله عن معرفته بالغناء قال « نعم ! أحسن منه ما يحسنه الناس وأكثراً ما أحسنه لا يحسنونه ... فان أذنت غنيتك ما لم تسمعه أذن قبلك » وأخذ يصف له عوده وما ركب عليه من أوتار لها في الترنم والصفاء والعذوبة ما ليس لغيرها وما أن يأذن له الرشيد حتى يوحى الى عوده فيغني معه :
يا أيها الملك الميمون طأثره هرون راح اليك الناس وابتكروا

ويظل يغني والرشيد يسمع حتى يتم أبياته في نغم لم يسمع الخليفة مثله ، ولحن لم تردد نظيره جنبات القصر ، ويطير الرشيد طرباً ويسمع من الانغام جديداً لم يُسمعه اسحق مثله فيعاتب اسحق كيف ترك الرجل من قبل فلم يعلمه به ، ثم يأمره أن يأخذه لديه فيعني به حتى يفرغ هو له .

أما اسحق فأسرهما لتلميذه ، ولم يكذب يخلوبه حتى عنفه واشتد في تعنيفه وصارحه بما هاج به من الحسد له والغیظ منه ، وخيره بين اثنتين لا ثالث لهما ، فاما أن يغادر تلك البلاد فلا يراه بعد ذلك أبداً ويعطيه على ذلك أغلظ الايمان وأوثق العهد وله عليه ما يريد من مال أو عطاء ، وإما أن يقيم على كرهه منه وشركه له في الصناعة وعند ذلك لن يأمن غدره ولن يغنيه الحذر شيئاً ، وأما زرياب

رجل من رجال الفن ، خلق له وفطر عليه ، لعل في سيرته الطريفة مثلاً للموهبة الطبيعية ، ترفع من شأن صاحبها فتبلغ به الذروة وتجعله شيئاً مذكوراً ، يتحكم في حياة أمة بأسرها ، فيبدل فيها ويغير منها ، ويؤثر وحده في طبائع أهلها وما ورثوه من تقاليد ، ويخلق فيها من العادات والفعال ما لم يكن بها وما ليس يخطر لأهلها على بال .

هو أبو الحسن علي بن نافع مولى المهدي الخليفة العباسي كان أسود اللون ، حلو الشمائل ، وكان شاعراً مطبوعاً فصيح اللسان ، لقبه قومه بزرياب تشبيهاً له بطائر عندهم أسود اللون ، عذب الصوت ، حلو التغريد ، وكان زرياب رقيق الحس ، دقيق الشعور ، له حنجرة لم تخلق لغير الغناء ، وأنامل كأما أعدت للعود ، ونفس

* نشرنا عن زرياب فصلاً ضافياً ممتعاً للأستاذ العبادي في ص ٨ من العدد (٧) من الرسالة

ويلقى ذو الغني وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه ، والذنب جم ولكن للغنى رب غفور
وقول الآخر :

من الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبتي ماله مدى ينتهي بي في مراد أحده
وقول غيره :

يا شباب الغد وابنائى الفدا لكمو ، أكرم وأنعم بالفداء
لا تقولوا حطنا الدهر ، فما هو إلا من خيال الشعراء
واطلبوا المجد على الأرض فان هى ضاقت فاطلبوه في السماء
وإني مع شوقي يوم قال واصفاً شباب مصر :

شباب قُنع لاخير فيهم وبورك في الشباب الطامحين
ولكنه من الواجب ألا نلقى العبء كله على الشباب ، بل
هو ملقى على التربية والآداب ، فالأدب الشعبي الدارج ملء بالقناعة
والأدب المدرسي مثله .

أحمد أحمد بدرى

« يتبع »

فلم يكد يرى أستاذه بنفس عليه رضا الخليفة ، ولم يكد يسمع منه هذا الوعيد المخيف حتى قام من فوره يبنى بلاداً غير هذه وناساً غير هؤلاء ، وأما الرشيد فانه لم يكد يفرغ من بعض شؤونه حتى سأل عن زرياب أستاذه فزعم له اسحق أنه رجل غر أحق ماهو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين حتى رحل غضبان يبنى على الأيام أن أوقعته فيمن لا يقدررون النبوغ ولا يكرمون النابغين ولا يعرفون الغث من السمين فسكن الرشيد الى قول اسحق .

سار زرياب اذن من المشرق وكان المغرب قبلته فولى نحوها وجهه ، وراح في الأندلس يلتمس ما لم يظفر به في العراق من بعد الصيت ورفعة الشأن ، وكتب الى عبد الرحمن بن الحكم يعلمه بمكانه من الصناعة ويسأله الاذن له في الوصول اليه ، وما هو الا أن يقرأ عبد الرحمن الكتاب حتى يرحب بصاحبه ويوصى عماله على البلاد أن يحسنوا اليه ويوصلوه الى قرطبة ، وفي قرطبة يدع زرياب ويملك على الأمير نفسه فيطرح كل غناء سواه ويقدمه على جميع المغنين ويقطعه الأرض ويمنحه المال ويبلغ إعجابه به حدّاً لا مثيل له ، فيفتح له باباً خاصاً يستدعيه منه متى أراد ، وزرياب يذهب في الغناء كل مذهب ويضرب في التجديد بسهم وافر : هذه أعواد القوم لها أوتار أربعة ، فلزود هو عليها وترّاً خامساً يستهوى النفس بما يحدّثه من النغم ، وهما هي أعواد المغنين كبيرة الحجم ثقيلة الوزن فليكن عوده خفيفاً مرهفاً دقيق الصنع ، وهذا مضراب العود قد استعمله الناس من خشب فهو ثقيل في اليد قاسٍ على الأوتار ما يلازمها قليلاً حتى يقطعها أو يفسدها ، فليكن مضراب عوده من قوادم النسر فهو خفيف على الأنامل رفيق بالأوتار وان طالت ملازمته لها ، وهما هي ألحان القوم معدودة وأغانيهم معروفة فليجدد هوى اللحن ، وليأت من النغم بكل طريف وليسمع القوم من أغانيه وألحانه ما يعد بالآلاف .

وكان زرياب أيضاً قد جمع إلى براعة الفن وحلاوة الترجيع سلامة الذوق وترتيب الذهن فهو سمير اذا جالس الأمراء وأشراف الأمير ، وهو طيب الحديث إذا تحدث ، ماهر في خدمة الملوك ، يجيد استقبال الضيوف والزائرين ، متأنق في ملبسه يعني بزينة نفسه حتى صار مثلاً في الأناقة يحتذى ، أخذ عنه أهل الأندلس وحاكوه ،

فلم يعودوا إلى إرسال الشعر مفروقاً وسط الجبين مسدلاً إلى الخدين والحاجبين وإنما فعلوا كما يفعل زرياب ونساء زرياب ، فخذفوا شعورهم وقصروها دون الجباه وسووها مع الحواجب ودوروها الى الأذان وأسدلوها إلى الخدود ولم يعودوا الى ملاحف الكتان يلتحفون بها ، وإنما فعلوا كما يفعل زرياب فأثروا على الكتان أنطاع الأديم الناعمة ، ولم يبق الناس على ما هم عليه من خلط بين ملابس الشتاء وملابس الصيف ، وجهل بما يلائم الربيع وما يناسب الخريف ، وإنما علمهم زرياب أن لكل زمان ثياباً ، فلربيع الملون الزاهي ، وللخريف الخفيف الملون ، وللشتاء الثياب الكثيفة ذات الحشو والفراء ، وللصيف البياض من الثياب ، وكذلك عرف الناس مذ جاءهم زرياب صنوفاً من الطعام لم تكن لهم بها دراية ولا بطعمها علم واستعمل القوم في الأندلس من العطور ما لم يألفوه من قبل ، وفضلوا آنية الزجاج الرفيع على آنية الذهب والفضة لأن زرياباً كان يؤثر الزجاج ويتناول شرابه فيه

وكان زرياب أيضاً قد علم بناته وجواريه أحسن الأغاني وأدبهن بأدبه فبرعن في الغناء وأتقن الصناعة ، فكانت حمدونة ابنته عند أهل بيتها في الصدر ، وكانت أختها عليّة كذلك ، وتزوجت من الوزير هشام بن عبد العزيز ، أما جاريته مصاييح فقد جمعت إلى جمال الصوت جمال النبل كتب صاحب العقد الفريد الى مولاهما وقد حجبتها عن الناس واختص بها مجلسه يقول له :

يامن يضمن بصوت الطائر الفرد

ما كنت أحسب هذا الضن من أحد

لو أن أسمع أهل الأرض قاطبة

أصغت الى الصوت لم ينقص ولم يزد

فأدخله مولاهما الى مجلسه وأذن له في سماعها

ووضع زرياب المراسم لافتتاح الغناء فما يفتح غناء في الأندلس الا وأوله النشيد وآخره الاهزاج فأكسب زرياب المحافل روعة وأهدى المجالس باقات من الفن زاهيات ، وكان وحده فناناً تنقل الى الأندلس ، وحضارة عمت قرطبة ما